﴿سورة الشرح﴾

وفيها ست مسائل :

المسألة الأولى: قضية شرح صدر رسول الله ﷺ :

وهى قضية كثر حولها لغط المستشرقين وأنكرها بعض العلمانيين ممن يقدسون العقل ويرفعون شأنه على النقل، مع أن هذه الحادثة قد أثبتها القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية وأصحاب السير المتقدم منهم والمتأخر حيث أجمعوا على وقوعها للنبى ﷺ يقظة وهو ابن سنتين فى بادية بنى سعد عند مرضعته حليمة السعدية، وقد وردت قصة الشرح فى صحيح البخارى من حديث أنس بن مالك ﷺ: (أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره فقالوا إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهومنتقع اللون قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره) [(١)].

والذى عليه قول كثير من أصحاب السير أن حادثة شق الصدر حدثت للنبى ﷺ مرتين، الأولى وهو مسترضع فى بادية بنى سعد والثانية لتهيئته لرحلة الإسراء والمعراج.

قال أبو حاتم: (شق صدر النبي ﷺ وهو صبي يلعب مع الصبيان وأخرج منه العلقة ولما أراد الله جل وعلا الإسراء به أمر جبريل بشق صدره ثانيا وأخرج قلبه فغسله، ثم أعاده مكانه مرتين في موضعين وهما غير متضادين)[(٢)] .

المسألة الثانية: هل كان للنبى ﷺ أوزار، وإلا فما معنى قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢)﴾ ؟

والجواب: معلوم أن الوزر هو الذنب، وقدسبق وأن تعرضنا لقضية هل كان للنبى ﷺ أوزار وذنوب أم عصمه الله ﷻ منها أى قضية (عصمة

(١) صحيح مسلم ١٤٧/١ ، ورقمه ١٦٢.
(٢) صحيح ابن حبان ٢٤٢/١٤، ورقمه ٦٣٣٤ .

الرسول ﷺ) وذلك حين تعرضنا لقوله ﷻ فى سورة (النصر): ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)**﴾ ، والحق أن هذه قضية دار حولها جدل كثير وخلاف كبير بين فريقين: الأول يثبت العصمة التامة ويتأول الآيات التى وردت فى عتاب النبى ﷺ فى القرآن لينفى عن النبى ﷺ حدوث الذنب، والفريق الثانى ينفى العصمة ويثبت حدوث الذنب للرسل عليهم الصلاة والسلام، والحق – فيما أرى – أن نفرق بين نوعين من العصمة :

الأول: العصمة من أمور التبليغ والرسالة وكبائر الذنوب، والثانى: العصمة من صغائر الذنوب والأخطاء الدنيوية.

أولاً: بالنسبة للأمر الأول فلا شك فى عصمة الرسل – عليهم السلام – فيه، لأن الخطأ فى هذا الجانب يقدح فى أصل الرسالة وتمام الدين، وقد عصمهم الله تعالى من الخطأ فى الإبلاغ عن عمد أو من غير قصد، قال الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٦٧)**﴾[١]، وقال الله ﷻ: ﴿**وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)**﴾[٢]، قال العلامة السعدى – رحمه الله – فى تفسير الآية: (وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين فلم يشح بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرءوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأحباراً متفرسين)[٣] وعلى عصمة الرسل الكرام – عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام– انعقد إجماع الأمة، قال شيخ الإسلام – رحمه الله – فى (مجموع الفتاوى): (فإن الآيات الدالة

(١) سورة المائدة / الآية ٦٧.
(٢) سورة التكوير / الآية ٢٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٩١٢.

على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله ﷻ، فلا يكون خبرهم إلا حقاً وهذا معنى النبوة وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب وأنه ينبئ الناس بالغيب والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه) [1] .

وكذا القول بعصمتهم من كبائر الذنوب فإن الوقوع فيها لا يليق بآحاد الناس فما بالك بخيارهم ومرسليهم سواء قبل البعثة أو بعدها، بخلاف ما حوته كتب التوراة والإنجيل – بعد التحريف – من بلايا وزلات لا تليق بعوام الناس لكن الضالين المكذبين ألصقوها بالأنبياء والمرسلين واتهموهم – كذباً وافتراءً – بالزنا وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق والوقوع فى الحرام .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : (إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام ، وجميع الطوائف ... وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل لم يُنقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول) [2]، ولأن صدور الكبائر منهم – حتى قبل بعثتهم – سبيل لطعن أعدائهم فيهم بعد بعثتهم، وحجة للطعن فى صدق إيمانهم وحسن إخلاقهم وانصراف الناس عن تصديق دعوتهم، ويكفى للاستدلال فى هذا الباب ما عُرِف به نبينا ﷺ بين قومه قبل بعثته بالصادق الأمين .

ثانياً: أما الأمر الثانى وهو العصمة من صغائر الذنوب والأخطاء الدنيوية، فهذه مسألة دار حولها جدل وخلاف، فأكثر من قال بالعصمة التامة وعدم وقوع الخطأ الدنيوى فضلاً عن الدينى كان الروافض الشيعة أصحاب المذهب المبتدع، حيث اتخذوا القول بعصمة الأنبياء ذريعة ومدخلاً للقول بعصمة آل البيت ومن ثم القول بعصمة الأئمة الإثنى عشر،

(١) مجموع الفتاوى ٧/١٨ .
(٢) المرجع السابق ٣١٩/٤ .

ثم القول بعصمة معمميهم ورجال الدين فيهم، فأطاعوهم ورفعوا أقدارهم حتى جعلوا أقوالهم وأفعالهم حجة على من خالفهم وخلعوا عليها قدسية القرآن وحجية السُنة .

لكن القول المعتبر عندنا وهو مذهب جمهور العلماء إن الأنبياء غير معصومين من الوقوع فى صغائر الذنوب، لكن الوحى يتنزل عليهم بالتصحيح والتنبيه، والتعديل والتصويب، فيسارعون إلى التوبة والاستغفار ليكونوا بعد الذنب والتوبة منه أفضل وأقرب من حالهم قبله، قال شيخ الإسلام: (وعامة ما يُنقل عن جمهور العلماء أنهم (أي الأنبياء) غير معصومين عن الإقرار على الصغائر، ولا يقرون عليها، ولا يقولون إنها لا تقع بحال، وأول من نُقل عنهم من طوائف الأمة القول بالعصمة مطلقاً وأعظمهم قولاً لذلك: الرافضة، فإنهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل)[1]، والأدلة على عدم عصمتهم من الصغائر فى القرآن والسنة كثيرة متوافرة، ومن ذلك فى قصة آدم – عليه السلام –: ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)**﴾[2]، وقد وصفت الآية ما وقع من آدم – عليه السلام – بالمعصية وبينت أن الله ﷻ وفقه للتوبة حتى تاب من المعصية فتاب الله ﷻ عليه، وكذا فى قصة موسى – عليه السلام – لما قتل القبطى فيما ورد فى سورة القصص ثم قوله فيما حكاه القرآن عنه: ﴿**قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)**﴾[3]، وفى الآية اعتراف من موسى – عليه السلام – بظلم نفسه بوقوع القتل منه ثم استغفاره لربه ودعاؤه أن يغفر الله ﷻ له فغفر له، ومعلوم أن الغفران إنما يكون من الذنوب

(١) المرجع السابق ٣١٩/٤ .
(٢) سورة طه / الآيتان ١٢١– ١٢٢
(٣) سورة القصص / الآيتان ١٥– ١٦ .

والمعاصى، أضف إلى ذلك ما ورد فى قصة داود – عليه السلام – مع الخصمين اللذين تسورا المحراب، وأنه تعجل فى إصدار الحكم دون تثبت ولا سماع لكل أطراف القضية، فلما علم بخطئه تاب إلى الله وخر راكعاً وأناب، فغفر الله له ذنبه، قال الله ﷻ: ﴿**وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)**﴾[١]، والمتتبع لآى القرآن الكريم يجدها قد بعضها قد حوى عتاباً من الله ﷻ لنبيه ﷺ ومن ذلك :

عتاب الله ﷻ له فى قضية أسرى بدر حين قبل منهم الفداء، قال الله ﷻ: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)**﴾[٢]، وكذا فى فى قضية التحريم إرضاءً لبعض نسائه، قال الله ﷻ:﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)**﴾[٣]، وقضية عبد الله بن أم مكتوم الذى أعرض النبى ﷺ عنه فنزلت سورة (عبس) التى عاتبه الله ﷻ فيها على هذا الإعراض والانشغال عن هذا الرجل المؤمن، قال الله ﷻ: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)**﴾[٤] .

وأرى لزاماً علينا من باب تتمة هذا الموضوع أن نذكر ما قد يقع من الأنبياء – عليهم السلام– من الأخطاء الدنيوية فى أمور الحياة المعيشية والحياتية وهى جائزة فى حقهم مع تمام عقولهم وسداد تفكيرهم لكن الخطأ

---

(١) سورة ص/ الآيتان ٢٤– ٢٥ .
(٢) سورة الأنفال / الآيات ٦٧– ٦٩ .
(٣) سورة التحريم/ ١ .
(٤) سورة عبس/ الآيات من ١– ١٠ .

فى هذا الباب قد يقع منهم لعدم إحاطتهم بكل شئون الحياة وتشعب أعمالها من زراعة وصناعة وتجارة وحرب وقضاء ... إلخ .

ويدخل فى هذا الباب ما رواه مسلم فى صحيحه من قصة تأبير نخل المدينة حيث روى مسلم في صحيحه عن رافع بن خديج ﷺ قَالَ: قَدِمَ نَبِيّ اللّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَهُمْ يَأْبُرُونَ النّخْلَ. يَقُولُونَ يُلَقّحُونَ النّخْلَ. فَقَالَ: "مَا تَصْنَعُونَ؟ " قَالُوا: "كُنّا نَصْنَعُهُ"، قَالَ: "لَعَلّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا" فَتَرَكُوهُ، فَنَفَضَتْ أَو قْال: فَنَقَصَتْ قَالَ: "فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ"، فَقَالَ: "إِنّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنّمَا أَنَا بَشَرٌ")[1]. ومعلوم أن هذا إنما يكون فى أمور الدنيا فلا يقدح فى عصمتهم من جهة الإبلاغ والرسالة ... والله أعلى وأعلم .

المسألة الثالثة: ما معنى وصف الوزر بـــ ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(٣)﴾؟

والجواب: وصف هذا الوزر بالثقل على كاهل النَبِيّ ﷺ، قال الفخر الرازى: (قال علماء اللغة: الأصل فيه أن الظهر إذا أثقل الحمل سمع له نقيض أي صوت خفي وهو صوت المحامل والرحال والأضلاع، أوالبعير إذا أثقله الحمل، فهو مثل لما كان يثقل عن رسول الله ﷺ من أوزاره) [2]، وقال أبو حيان: (والنقيض : صوت الانقضاض والانفكاك) [3]، وفيه دلالة على شدة إيمانه وقوة تعلق قلب نبينا ﷺ بربه حتى كانت صغار الذنوب وكأنها جبل عظيم يحمله فوق ظهره حتى كاد أن ينقض ظهره من ثقله عليه، وايم الله تلك حال المؤمن الذى ينظر إلى صغار الذنوب وكأنها جبال تهامة حطت على عاتقيه، أما المنافق فينظر إلى كبائر الموبقات وعظائم السيئات وكأنها ريشة يتخفف فى حملها، أو ذبابة وقعت على أنفه فحرك يده إليها فطارت فلا هو شعر بها حين نزلت ولا حين انصرفت... والله المستعان .

---

(١) صحيح مسلم، ٤/ ١٨٣٥، ورقمه (٢٣٦٢) .
(٢) مفاتيح الغيب ٣٢ / ٥
(٣) البحر المحيط ٤٨٤/٨

المسألة الرابعة : كيف رفع الله تعالى ذكر نبيه محمد ﷺ مصداقاً لقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾؟

والجواب: أذكر بعضاً من جوانب رفعة ذكره ﷺ وعلو شأنه، ومن ذلك :

- أن الله ﷻ قد أخذ العهد له عليه الصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين، قال الله ﷻ: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾** [١] قال ابن كثير: (فالرسول محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائماً على يوم الدين هو الإمام الأعظم الذي إن وُجد في أي عصر لكان هو الواجب الطاعة المقدمعلى الأنبياء كلهم ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لمَا اجتمعوا ببيت المقدس) [٢] .

- إن الله ﷻ جعل النجاة من النار بقول شهادة التوحيد ولا تتحقق هذه الشهادة إلا بقولك: (أشهد ألا إله إلا الله، ثم لزاماً عليك أن تتبعها بقولك (أن محمداً رسول الله).

- إن الله ﷻ قرن اسم النبى ﷺ باسمه فلا يُذكر اسم الله ﷻ إلا واسم رسوله معه حين يؤذن المؤذن كل يوم خمس مرات .

- إن الله ﷻ قد أقسم بحياة رسوله ﷺ وهذا القسم بحياة الرسول ﷺ خاص بالله ﷻ فله تعالى أن يُقسم بمن شاء من خلقه وليس لأحد من خلقه أن يُقسم إلا به ﷻ، قال الله ﷻ مقسماً بحياة نبيه ﷺ **﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾** [٣] .

---

(١) سورة آل عمران / الآيتان ٨١-٨٢ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، ٢ / ٦٨ .
(٣) سورة الحجر / الآية ٧٢ .

- جعل الله ﷻ طاعة رسوله واجبة وقرنها بطاعته ﷻ فى أكثر من موضع، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿**قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ**﴾[١]، وقال ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[٢] .

- إن الله ﷻ قد نادى فى كتابه الكريم على جميع المرسلين بأسمائهم مجردة، فقال: ﴿**وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**﴾ [٣]، وعلى نوح فقال: ﴿**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا**﴾[٤]، وعلى خليله إبراهيم: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤)**﴾ [٥] وعلى كليمه موسى: ﴿**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى(١٩)**﴾ [٦]، وعلى زكريا بقوله: ﴿**يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ**﴾ [٧].

وعلى يحيى فقال: ﴿**يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾[٨]، وعلى داود فقال: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾[٩] ولكنه ﷻ لما أراد أن ينادى على رسوله محمد ﷺ لم يناده باسمه مجرداً فلم يقل: "يا محمد"، بل ناداه بكل توقير وتقدير فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾[١٠] وقال: ﴿**يا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ**﴾[١١] وقال: ﴿**يا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ(١)**﴾[١٢] وقال: ﴿**يا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ(١)**﴾[١٣] .

- أضف إلى ذلك أن الله ﷻ لما أثنى على رسله بحسن الأخلاق ذكر كل رسول بصفة خلقية معينة امتدحه بها، فقد أثنى الله على خليله إبراهيم فقال: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥)**﴾[١٤]، وقال عن إسماعيل:

---

(١) سورة آل عمران / من الآية ٣٢ .
(٢) سورة النساء / من الآية ٥٩ .
(٣) سورة البقرة / من الآية ٣٥ .
(٤) سورة هود / من الآية ٤٨ .
(٥) سورة الصافات / من الآية ١٠٤ .
(٦) سورة طه / الآية ١٩ .
(٧) سورة مريم / من الآية ٧ .
(٨) سورة مريم / من الآية ١٢ .
(٩) سورة ص / من الآية ٢٦ .
(١٠) سورة المائدة / من الآية ٤١ .
(١١) سورة الأحزاب / من الآية ١ .
(١٢) سورة المزمل / الآية ١ .
(١٣) سورة المدثر / الآية ١ .
(١٤) سورة هود / من الآية ٧٥ .

﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (٥٤)**﴾[١]، وقال عن موسى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (٥١)**﴾[٢]، وقال عن أيوب ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرا**﴾[٣]، وحين تحدث عن سيدنا محمد ﷺ بيَّن أنه حاز الكمالات كلها، فجمع له كل محاسن الأخلاق، فقال: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)**﴾[٤] .

المسألة الخامسة: لم جاءت العسر معرفة بأل، واليسر نكرة فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٦)﴾ ؟

والجواب: المتأمل فى الآيتين يجد أن كلمة العسر قد جاءت معرفة بأل (**الْعُسْرِ**)، بيد أن كلمة اليسر قد جاءت نكرة (**يُسْراً**) فما الحكمة من ذلك ؟

يرى أهل اللغة أن الكلمة المعرفة بأل إذا تكررت فى سياق واحد فهى تكرار والثانية هى عين الأولى كقولك: جاء الرجل، وأخبرنى الرجل، فيكون الرجل الأول هو عينه الرجل الثانى الذى تتحدث عنه لكن الأمر يختلف فى حال الاسم النكرة – أى غير المعرفة – فإن النكرة متى تكررت وأعيد ذكرها فى سياق واحد كانت مختلفة، وكان الثانى غير الأول، تقول: جاء رجل، وأخبرنى رجل، فرجل الثانية غير عين رجل الأولى، وإذا طبقنا هذا الكلام على الآية الكريمة فسنجد أن كلمة العسر معرفة مكررة فهى بمعنى واحد، أما كلمة اليسر فهى نكرة مكررة فهما يسران مختلفان، ومن هنا قالوا: (لن يغلب عسر واحد يسرين)، قال العلامة السعدى في تفسيره: (وتعريف "العسر" في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير "اليسر" يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين، وفي تعريفه بالألف واللام – الدالة على الاستغراق والعموم – ما يدل على أن

(١) سورة مريم / من الآية ٥٤ .
(٢) سورة مريم / من الآية ٥١ .
(٣) سورة ص / من الآية ٤٤ .
(٤) سورة القلم / من الآية ٤ .

كل عسر، وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ، فإنه في آخره التيسير ملازم له)[1] .

وهذا ما عبر عنه الشاعر بقوله :

إذا ضاقت بك الدنيا * ففكر فى (ألم نشـــرح)**

فعسر بين يسريـــن * متى تذكرهما تـــــفرح**

وقد روى أن عمر بن الخطاب ﷺ لما بلغه أن أبا عبيدة بن الجراح ﷺ قد حاصره الروم وضيقوا عليه فى الشام، فكتب إليه يُصبره ويقرب إليه الفَرَج : (سلام عليك، أما بعد، فإنه ما ينزل بعبدٍ مؤمن من منزلة شدة إلا يجعل الله له بعدها فرجًا، ولن يغلب عسر يسرين ...)[2].

وهذا درس لكل المكروبين ورسالة لجميع المظلومين بأن يسر الله حاضر وفَرَج الله قريب، ودوام العسر مع اليسر محال، فالصبر الصبر عباد الله على النوائب والمصائب، فلن يغلب عسر يسرين بإذن الله ﷻ.

المسألة السادسة:بم أمر الله ﷻ نبيه ﷺ في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾؟

والجواب: إن الله ﷻ قد أمر نبيه ﷺ فيهما بأمرين :

الأمر الأول: النصب بعد الفراغ : ومعلوم أن النصب بمعنى التعب، ومعنى الآية كما ذهب جمهور المفسرين على اختلاف فى العبارة: أن الله ﷻ أمر نبيه إذا فرغ من عبادة أن يبدأ فى عبادة أخرى، فإذا فرغ من صلاة الفرض قام إلى الدعاء والذكر، وإذا فرغ من الجهاد أسرع للعبادة، وهكذا فحاله بين التقلب من طاعة لطاعة ومن عبادة لأخرى، فلا وقت يُضيعه ولا فراغ لا يجد ما يشغله وقيل: (إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطاً فارغ

---

(١) تفسير السعدى ، ص ٩٢٩ .

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ (٤٤٦/٢)، والحاكم في المستدرك (٣٢٩/٢)، والبيهقي في الشعب (٢٠٥/٧) .

البال)[1]، ودنياه ﷺ كانت كلها فى مرضاة الله ﷻ وسعياً لقضاء مصالح الناس وتبليغهم الرسالة والقيام بمصالح بيته وأمته .

الأمر الثاني: ﴿**وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ** (٨)﴾ أي ارغب إلى ربك فى الدعاء والمسألة ولا تلجأ إلى غيره أو تطلب المدد والعون من سواه، واجعل كل عملك خالصاً لله ﷻ رغبة فيه وحده .

وفى قراءة (وإلى ربك فرغِّب) [2]: أى رغِّب الناس وحببهم فى الله ﷻ، طلباً لمرضاته وحرصاً على ثوابه وجنته.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ٤ /٦٤٢ .

(٢) مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازى، ٨/٣٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.